الفصل

6

شخصية شعبية

تغيرت حياة ميد في أواخر الأربعينيات من القرن الماضي. أحست أن الحرب العالمية الثانية قد غيرت الوضع الإنساني، واختلفت بعدها حياة كل فرد. لم تنطبق ملاحظاتها العامة هذه على الوضع العالمي فقط وإنما على حياتها نفسها، فقد حدث تغير انقلابي فيها. رجع غريغوري بيتسن من إنجلترا عام 1945 ولكنه لم يكن مرتاحاً أن يعيش في ظل زوجته الأكثر شهرةً والأكثر طاقةً فظل يمكث بعيداً لفترات أطول فأطول حتى تم الطلاق بينهما في النهاية في عام 1950. خسرت ميد بطلاقها وهي في أواخر الأربعين من عمرها ليس فقط الزوج الذي أحبته بعمق وأعجبت به؛ لكن خسرت أيضاً الرفيق الفكري الذي عملت معه بعضاً من أكثر أعمالها الخيالية ووجدت نفسها وحيدة مثل الأم العازبة مع طفلتها الصغيرة لتعتني بها.

obeikandl.com

قامت ميد بالاستمرار في تبني الأشكال المختلفة للعائلة الممتدة التي ساعدتها خلال سنوات الحرب على الاعتناء بكاثرين، فظلت هي وابنتها تشاركان لورنس وماري فرانك وأطفالهما منزلاً في شارع بيري بمدينة نيويورك. كانوا في الصيف يذهبون جميعاً إلى كلوفيرلي في نيوهامبشاير. طورت ميد جدولاً معقداً للاعتناء بكاثرين حيث حرصت على التأكد من بقاء شخص معها في المنزل بعد ظهيرة كل يوم عندما ترجع ابنتها من المدرسة. كما أنها حاولت قدر إمكانها أن تكون موجودة على الفطور والعشاء. كانت صديقتها في الكلية ماري آيشيلبيرجر (أو العمة ماري) كما كانت كاثرين تدعوها مركزاً مهماً آخراً للاستقرار في حياتهما؛ حيث ساعدت كلاً من ميد وابنتها في كل شيء من الإصلاحات حتى التعاملات المصرفية.

توفيت رث بندكت عام 1948 وبكت عليها ميد بكاءً لا عزاء له. فقد ذهبت الآن صديقتها الوحيدة، الشخص الوحيد في العالم الذي قرأ كل كلمة كتبتها، والتي كانت ميد بدورها تقرأ لها كل كلمة كتبتها. ولأنها أرادت أن تري ابنتها أنه حتى الموت يمكن أن يكون جميلاً، أخذتها معها لإلقاء نظرة على الجثمان.

في كتابها «الذكر والأنثى» الذي نشرته عام 1949، عبّرت ميد عن إحساسها الجديد بأهمية الأمومة، فإنجاب الأطفال كن فوق كل شيء هو الشيء الوحيد

الذي لم يكن بوسع الرجل فعله، فقد كان حاجة بيولوجية ملحة، وليس نتاجاً ثقافياً صنعياً نمطياً. كتاب «الذكر والأنثى» هو أكثر كتب ميد تعقيداً، فقد حاولت فيه جاهدةً أن تفصل بين ما هو فطري بين الرجال والنساء في أمزجتهما الخاصة عما هو ببساطة نتاج ما يتعلمونه من ثقافتهم.

على الرغم من أنها ركزت على الحاجة بأخذ مسألة الأمومة بالحسبان عند شرح التوقعات الثقافية المختلفة بسلوك الرجل والمرأة، إلا أنها مقتت تمجيد الأمومة الذي أصبح جزءاً من المجتمع الأمريكي بعد الحرب. فقد رفضت الفكرة التي طرحها كل من فرديناند لندبرج وماريانيا فارنهام في كتابهما «المرأة الحديثة: الجنس الضائع» والذي اعتبرا فيه أن النضال النسائي عصابي. رفضت دعوتهما للعودة إلى دور الأنثى الاتكالية والسلبية. كما آمن هذان العالمان باعتقاد فرويد أن جزءاً هاماً من شخصية المرأة يؤثر عليه ما سماه بـ «حسد العضو الذكري». وردت عليهما ميد أن المرأة لم تعاني كثيراً من «حسدها من العضو الذكري». أكثر من ذلك، فإن الصبية الصغار وبشكل مماثل يحسدون الفتيات من الطاقات الإنتاجية عندهن، وأعطت أمثلة على ذلك من المجتمعات البدائية. على الرغم من أن ميد لم تسمِّ نفسها يوماً «متعصبة المرأة» إلا أنها كانت مدركة تماماً حجم الأعباء الملقاة على عاتق النساء اللواتي ينتظر منهن

obeikandl.com

المجتمع أن يكنَّ ربات بيوت، ومربيات أطفال، وحاولت إقناع الجمهور بإنشاء شبكات مساندة للنساء العاملات. وأخيراً فقد نظر إليها على أنها جدة الحركة النسائية الحديثة؛ فقط لأنها قدمت المثل الجيد. دعت كذلك إلى وجوب إعطاء تيسير أكبر في حرية الاقبال على الزواج، سواء كان رغبة المغاير أو النظير مما يمكن أن يغني حياة الناس (على حد زعمها). في عام 1951، دعيت ميد لإلقاء سلسلة محاضرات في استراليا فقالت للأسترالي الذي اتصل بها ليدعوها: «إنه لشيء مضحك، فقد كنت أنا وابنتي هذا الصباح نقول: أننا نريد الذهاب إلى استراليا». وهكذا ذهبت وسجلت ابنتها ذات الاثنتي عشرة سنة في مدرسة داخلية في استراليا، وسافرت في أرجاء القارة تعطي المحاضرات وتزور الأصدقاء القدامى ومنهم زوجها السابق ريو فورتيون.

بينما كانت في استراليا سمعت عن التغيرات السريعة التي حدثت في جزر الأميرالية منذ أن أجرت مع فورتيون فيها عملاً ميدانياً منذ عام 1928، وكتبت «النمو في غينيا الجديدة» فقد كانت تحركات الجيش الأميركي جارية في هذه الجزر وجزر أخرى في غينيا الجديدة خلال الحرب العالمية الثانية وقد ترك الجيش وراءه مجتمعاً متغيراً. ومنه القائد الذي يدعى «بالياو» الذي أراد توحيد شعبه وجعلهم غربيين. كانت ميد من قبل تعتقد أن عملها الميداني قد انتهى، إلا أنها أرادت الآن أن تذهب وترى بنفسها تلك

التغيرات. فهي في سن الخمسين تشعر بطاقة جديدة، وقد وصفت هذا الشعور أنه «حيوية ما بعد سن اليأس». هكذا بدأت بإعداد الترتيبات المعقدة لأول رحلة ميدانية لها منذ انتهاء الحرب.

انطلقت البعثة بعد سنتين، عام 1953، حيث توجهت إلى قرية بيري في جزيرة مانوس من الجزر الأميرالية حيث عاشت مع فورتيون في ما مضى. بيد أنها أخذت معها كفريق بحثٍ، طالباً خريجاً في علم الإنسان اسمه ثيودور شوارتز وزوجته لينورا ذات العشرين ربيعاً وهي فنانة ومغنية. تركت ابنتها كاثي في الوطن في نيويورك مما سبب الاستياء الدائم لكاثرين. فقد كتبت في عام 1985 عن البيت الذي ترعرعت فيه وقالت: «غادرت أولاً لمدة سنة عام 1953 عندما كنت في الثالثة عشرة من العمر». اندهشت ميد من مدى تغير عدد الناس في مانوس نتيجة الحرب العالمية الثانية. فقد أدهشها الاتصال المتزايد مع العالم الخارجي ومدى نجاح أهل مانوس في التكيف مع هذه الظروف ففي عام 1928، كان سكان قرية بيري يعيشون في مساكن مبنية على دعائم فوق البحر، ويلبسون القليل من الثياب، ويستخدمون أسنان الكلاب وعقود الصدف كنقود، ويحاولون إرضاء أشباح أجدادهم. لم يكونوا يعرفون الكتابة أو الجغرافية، ولم تكن عندهم وحدات سياحة تزيد على أكثر من 300 شخص. ثم اختار الجيش الأمريكي مانوس منطقة إنزال رئيسية، فأنشأ الجنود أميالاً من الثكنات المصنوعة من الخشب والحديد

ومهَّدوا الجبال، وفتحوا القنوات، وبنوا مهابط الطائرات، وجلبوا معهم الآلات، وكميات ضخمة من الإمدادات المحملة في سفن الشحن. والأهم من ذلك أنهم عاملوا سكان مانوس كأصدقاء، وكأفراد أحرار، بالمقارنة مع طريقة الاستعلاء التي عوملوا بها من قبل الحكام الأستراليين قبل الحرب، ومن قبل اليابانيين الغزاة كذلك. كتبت ميد لاحقاً وقد أثبت الآخرون صحة ما كتبت أن الأمريكيين لم يتركوا وراءهم طفلاً واحداً إلا وقد تبناه جندي أمريكي. بشكل عام، كان الأمريكيون محط إعجاب الجميع.

بعد مغادرة الجيش الأمريكي، حدثت ثورة في مانوس سميت بـ«طائفة الحمولة» قادها بالياو وهو ميلانيزي من الجزيرة المجاورة «بالوان». كانت حركته تجمع خليطاً من الأفكار المحلية، وأفكاراً تعلمها من البعثات الاجتماعية، ومن الخبرات التي استقاها وقت الحرب. اعتقد بالياو وأتباعه أن أجدادهم كانوا ليرموا بالأستراليين الذين حكموا الجزيرة خارجاً، أو يجعلوا منهم عبيداً وخدماً بينما يدخلون «الحمولة» وهي كل البضائع الأمريكية التي أفرغت بكميات هائلة خلال الحرب. وقد كان بالياو يحلم بتوحيد شعبه، والعمل معهم لبناء مجتمع مزدهر.

على كل حال فقد تم قمع هذه الطائفة إلا أنها تركت لدى شعب مانوس رغبة في إعادة صياغة حياتهم، وتبني

مظاهر الحياة الغريبة المتنوعة. وبالفعل فقد نقل سكان بيري قريتهم من الركائز على الماء إلى اليابسة وبنوا منازلهم بمطابخ ونوافذ، مثل طراز البيوت الأوروبية، في خطوط، وارتدوا الملابس الغربية، وأصبحوا يستمعون للمذياع، وتخلوا عن العادات القديمة والمحرمات المتعلقة بالولادة والزواج، وبدؤوا يصرون على الكرامة الشخصية بما في ذلك الحق في اختيار الشريكة بدلاً من الشراء المكلف للزوجات الذي كان يثقل كاهل الزوج بالديون لسنوات طويلة. هذا بالإضافة إلى أنهم انتخبوا قادة القرى وبدؤوا يفكرون كيف يجب أن يكون مكانهم في العالم الحديث؛ مما جعل ميد تقول عنهم: إنهم قفزوا فوق أربعة آلاف سنة، ورأت أن هذا التغير السريع المفاجئ أسهل من التغير البطيء. وكان هذا هو موضوع كتابها «الحياة الجديدة للقدامى» الذي نشرته عام 1956 حول عودتها إلى مانوس. علم أهل مانوس أن ميد قد كتبت عنهم كتاباً من قبل، وأنها تعزم ذلك الآن أيضاً. فحين وصلت مع مساعديها عام 1953، أخبر زعيم مانوس شعبه أن «كل شيء تفعله سيسجل ويصور ويوضع على شريط.... ومن ثم فإن كل أمريكا ستعرف ما إذا كنا نحقق نجاحاً في أسلوب حياتنا الجديدة أم لا».

كانت ميد تستمتع بشهرتها في العادة، ولكنها كانت في بعض الأحيان عبئاً عليها. ففي ذات يوم أثناء وجودها في مانوس عام 1953، أخبروها أن رسالة طارئة قد وصلتها من نيويورك. ومن خوفها أن يكون قد حصل مكروهٌ لكاثرين أو

obeikandl.com

لأي فرد من عائلتها، فقد قامت برحلة لمدة سبع ساعات في قارب صغير في المياه الهائجة لتصل إلى لورنجاو عاصمة مانوس، حيث تستطيع إجراء مكالمة هاتفية. ثم تبين أن الرسالة كانت من وكالة إعلانية في نيويورك؛ أرادت أن تعرف نوع السجائر التي كانت تدخنها فيما إذا كانت تدخن. كانت هذه آخر رحلة ميدانية تولّت فيها ميد بنفسها الجزء الأكبر من البحث. فقد مكثت ستة شهور، ثم تركت تيد ولينورا شوارتز لينهيا العمل. بيد أنها عادت إلى مانوس مرات عديدة في 1964و1965و1973و1975 متلهفة لزيارة أصدقائها القدامى ولتتفحص بنفسها العمل الميداني الحالي الذي كان يدور هناك، عادت إلى غينيا الجديدة في عام 1967 لتقوم بزيارات مختصرة للموندوغومر والأرابيش والبلينز والإياتمول. وقد اعتبرت هذه الزيارات المقتضبة التي أصبحت ميسرة بفضل السفر الجوي الحديث «زيارات ميدانية».

شاهدت ميد علامات التغير السريع في كل مكان ذهبت إليه. فلقد قصفت قرية الإياتمول في تاميونام (حيث عاشت مع بيتسن في عام 1938) في فترة الحرب، واحترقت بيوت الرجال العظام، وكل ما تحتويه من ممتلكات سرية عن آخرها. إلا أنها عندما مشت في أرجاء القرية، اكتشفت أن بيوت الرجال الأقل شأناً ما تزال موجودة، ولكنها تحولت الآن إلى «محلات تجارة» لتجتمع فيها الرجال الأكبر سناً؛ ليتحدثوا وينحتوا أشياء يأخذها المشترون للسوق الفنية العالمية.

ففي ثلاثين عاماً، انتقل الإياتموليون من تحقيق الإثارة القديمة في القتال وقطع رؤوس الأعداء، إلى «الانفجار الضخم للنحت التخيلي». اشتروا بالأموال التي كسبوها من النحت محركات صغيرة توضع في مؤخرة الزوارق، ومذياعاً من نوع ترانزستور، وولاعات سجائر، وأضواء كاشفة، وساعات، وملابس، ليرتديها أطفالهم عند الذهاب للمدارس.

في عام 1955، انتقلت عائلة فرانكس إلى بيلمونت في ماساتشوسيتس في قرية خارج بوسطن. إلا إن ميد مكثت في مدينة نيويورك حيث انتقلت لتعيش في طابق من منزل مؤلف من ثلاثة طوابق اشترته صديقتها رودا ميترو الموجودة في 193 منطقة ويفرلي. سكنت هناك حتى عام 1966 عندما تركت هي وميترو قرية جرين ويتش لتنتقل إلى شقة اشترتها ميترو في 211 غرب الحديقة المركزية، والسبب في عدم وجود منزل خاص بميد هو رغبتها في عدم تحمل عبء منزل خاص بها. فقد أرادت أن تصف نفسها أنها هاوية في منازل أصدقائها.

حتى عندما تسافر باستمرار فهي تفضل المكوث مع أصدقائها على المكوث في الفندق. وقد استمتعت ميد بالإبقاء على صداقتها القديمة، وبصفتها عالمة إنسان فقد كانت تحب فوق كل شيء أن تراقب ما كان يحدث للعائلات والشبان الصغار الذين عرفتهم.

ازداد وزن ميد في منتصف عمرها مما أضاف هالة

قرويو بيري في مانوس عرفوا ميد ووثقوا بها. وقد ترددت عليهم بشكل متكرر بين أعوام 1928 و1975.

على جسدها الصغير. وفي عام 1960، بعد أن كسرت كاحلها الضعيف ثانية، أخذت تستخدم عصا طويلة من خشب الكرز متفرعة من فوق على شكل شوكة تتكئ عليها في المشي.

سمحت لها العصا المشي دون انحناء، وسرعان ما أصبحت علامتها التجارية بالإضافة إلى الكاب (أو الرداء الذي يوضع على الكتفين دون أكمام) والذي أصبحت مغرمة به، وكانت تفضله باللون الأخضر والذهبي، ثم اشترت آخرين بألوان حمراء وزرقاء.

أعطت أغلب محاضراتها في الكليات والجامعات وأعطت دورات في عدة جامعات كذلك ولكنها في غالب الأحيان كانت تحاضر في جامعة كولومبيا حيث كان الطريق قصيراً وسيارة الأجرة توصلها من مكتبها في

المتحف إلى الجامعة. كان مكتبها في المتحف محوراً لنشاطاتها، وكان بيتها الحقيقي. اعتمدت في عملها فيه أكثر فأكثر على جيش من المساعدين. وقد كانت تحب أن توظف النساء الشابات اللواتي يتمتعن بذكاء، ويخططن للعمل في إحدى مجالات العلوم الاجتماعية، واللاتي كن قويات جسدياً (لأن العمل شاق ويشمل الكثير من تحريك الصناديق والملفات). كما كانت خبرتهن في الطباعة على مستوى عالٍ. كانت تتوقع أن تنتقل مساعداتها الشابات بعد سنة أو سنتين كما فعلت معظمهن، لكنها في الوقت نفسه كانت تفضل هذا الأسلوب لوجود دفق مستمر من الشباب الصغار حولها؛ مما ساعدها على التواصل مع تطور الأزمنة كما قالت. كانت هذه الأفواج المتعاقبة باستمرار توقر ميد، ولكنها في الوقت ذاته ترهبها، فقد كان مزاجهاً خرافياً، ذلك أنها كانت تبدي صبراً وتحملاً قليلين تجاه أي حماقة أو عدم كفاءة؛ سواء كانت على جزيرة بعيدة عن شاطئ غينيا الجديدة أم في نيويورك.

في العقود الثلاثة الأخيرة، تشعَّبت نشاطات ميد في مجالات عدة، وانخرطت في أنواع شتى من التعاون مع كثير من الناس. لدرجة أنها سئمت كما قالت ابنتها من توضيح وشرح مواقفها. إلا أنها تابعت اهتماماتها في علم الأمراض العقلية، والمؤتمرات النظامية، وشاركت كذلك بشكل حيوي في منظمات لا تعد ولا تحصى: بدءاً من مجلس العالم ومنظمات الأمم المتحدة ومنظمة الأبوة المخططة للخيميائيين الجدد، والمزرعة المبتكرة في

obeikandl.com

ميد ممسكة بعصاها التي كانت علامتها المميزة مع الكاب في اجتماع لمجلس العالم في جنيف، سويسرا عام 1966.

وودزهول في ماساتشوستس ومدرسة واجهة المجتمع في شرقي هارليم التي أسسها الشاعر نيد أوجورمان.

في الستينات من القرن الماضي، كانت تمضي معظم وقتها بصفتها امرأة حكيمة ذات شعبية، حيث أخذت طابع الجدة التي بإمكانها حل جميع المشاكل وإعطاء النصائح في كل المواضيع. سافرت كثيراً وبشكل مستمر

تحاضر وتتلقى الجوائز والشهادات الفخرية، وتعطي رأيها في كثير من المواضيع. على الرغم من أن أفكارها لم تكن في بعض الأحيان لامعة، إلا أنها كانت في معظم الأحيان الأخرى تدهش مستمعيها بأصالة وجرأة أفكارها. وبقيت تكتب لمدة ستة عشرة سنة مع رودا ميترو عموداً في مجلة نسائية هي «الكتاب الأحمر» وهي مجلة تعالج كل شيء بدءاً من حفلات الإجازات مروراً بمنظمة الغذاء العالمية، ومشاكل النساء المدمنات على الشرب، أو النساء العصبيات، وكذلك التبني، والجريمة، وباصات المدارس.

أحبت ميد أن تربك مستمعيها بعبارات مثيرة للجدل، وفي معظم الأحيان عنيفة.

وقد اقتبست بعض تصريحاتها كثيراً، مثل تصريحها أن (كل شخص فوق الخامسة والعشرون من العمر هو مثل المهاجر من دولة أُخرى) ردَدت هذا التصريح أواخر الستينات كثيراً، لتوحي أن الشباب الصغار يدركون كينونة الأشياء وأسبابها، بينما لا يعرف الكبار ذلك. ودافعت دائماً عن الشباب، وأصبحت الآن حليفة الجيل المتمرد الذي كان يحب أن يقول : «لا تثق بأي أحد فوق الثلاثين». وكان سبب دفاعها عن الشباب أنها رأت أن التقنية الغربية قد غيرت العالم كثيراً، وأن الشباب وحدهم الذين يفهمون هذه التغييرات وهذه التقنية.

كانت تتحدث كثيراً عن الجنس والزواج من منظور دراستها لهذه الظواهر في ثماني ثقافات أخرى على الأقل

حاضرت ميد كثيراً، حتى الكثير من الناس سمعوها تتحدث عدة مرات خلال قيامها بعملها.

وقد أعجبتها فكرة الزواج التجريبي، وكذلك الزواج الأحادي المتسلسل؛ الذي يتألف من سلسلة شركاء من النوعين (متعاقبين)، ولكن بشرط أن يكون كل منهم صادقاً طيلة مدة ارتباطه. ومن الأقوال المفضلة أيضاً: أنه كلما عاش الناس أطول، كلما كان من المرجح أن زواجهم لن يستمر طول العمر، فالناس يتوقعون الكثير من الزواج.

اعتزّت ميد بوجود علاقات طيبة مع أزواجها الثلاثة السابقين وزوجاتهم الجدد. وكانت ترى بيتسن على وجه الخصوص في المناسبات العائلية مثل يوم زفاف ابنتهما، وفي لقاءات خاصة بعلم الإنسان. لكن بالإضافة إلى

أزواجها الثلاثة كان لدى ميد طيلة حياتها أصدقاء كثيرون رجال ونساءً، لكنها كانت متحفظة إلى حد بعيد حول هذه العلاقات؛ لأنها كانت تعلم أن الشعب الأمريكي لن يكون متسامحاً. فكانت مهتمة بالانتباه للقيود والحدود الاجتماعية في العلن على الأقل. فهي لم تكن على الإطلاق ثائرة على المجتمع بل وإنها كانت تحمل ابنتها على أخذ دروس رقص، وتعلمها كتابة ردودٍ لائقةٍ على الدعوات الرسمية. وقد كانت ترى أن ازدهار وغنى الثقافة يكمن في تفصيلاتها. وأرادت من كل شخص أن يقبل ويحترم الاختلافات الثقافية، ويرى الأنماط في كل ثقافة.

سرت ميد جداً عندما أصبحت جدة في التاسعة من أكتوبر من عام 1969. وذلك عندما ولدت سيفان مارجريت كاسارجيان لابنتها ماري كاثرين وزوجها جون باركيف كاسارجيان. وفي الوقت نفسه فقد «استغربت» أن يتغير وضعها بشكل أبدي، دون قيامها بعمل مباشر؛ فقد أصبحت مرتبطة بيولوجياً بإنسان جديد.

كانت إسهامات ميد في عالم الإنسان كثيرة جداً. فقد كانت رائدةً في استخدام المصطلحات النفسية في دراسة النساء والأطفال. وكذلك كانت ألمعيةً في أساليب عملها الميداني وفي استخدام طرقٍ جديدة بما فيها الأفلام. أدخلت علم الإنسان في مجالات وموضوعات جديدة بما فيها العادات الغذائية والتغذية، وتربية الأطفال والثقافة الوطنية. وجلبت العديد من الأعضاء الجدد إلى مجالها

obeikandl.com

من الناس الذين أعجبتها أفكارهم وأعمالهم. كانت داعية وناشرة لأفكار علم الإنسان بشكل لا نظير له. فقد كتبت أكثر من ثلاثمائة مقالة وكتاب وموضوع، وكانت تظهر في برامج الحوارات التلفزيونية حيث استضافها أناس مثل جوني كارسون، كما كانت تتحدث على المذياع. وقد كانت تتحدث مثلما تكتب دون استخدام اللغة الاصطلاحية المهنية؛ بل كانت تتكلم بلغة إنجليزية متقنة وقوية.

كانت دائماً بمثابة المعلمة للناس تشجعهم على التفكير، أو تريهم كيفية القيام بالأشياء سواء حول كيفية تربية أطفالهم، أو كيف يحافظون على منظمة الأمم المتحدة، أو حتى كيف يعدون صحن سلطة. وأبدت اهتماماً خاصاً بالشباب وكتبت كتابين للمراهقين الصغار هما «أناس وأماكن» عام 1959 و«علماء الإنسان وما يفعلون» عام 1965.

مما لا شك فيه، أن شهرة ميد وتوددها المتعمد للرأي الشعبي، وعفويتها الدائمة، وحتى عباراتها التافهة ضايقت بعض زملائها من علماء الإنسان، حتى أن منهم من اتهمها بالإساءة إلى المهنة. وعلى الرغم من شهرتها الكبيرة، حيث بدت أنها منيعة لا تتأثر بالنقد، فإنها كانت في الحقيقة حساسة ومن السهل جرح مشاعرها. فقد دعت بكرم منها علماء الإنسان لعقد الاجتماع المهني السنوي في شقتها، ولكنها جرحت عندما قابل بعض من المئات

كرمها هذا بانتقاد ديكورات منزلها بصوت عال. فأصبح من السهل التفكير بها كمادة وليس كبشر.

وقد حمل لها المستقبل انتقادا أكثر خطورة. فقد علمت أن ديريك فريمان، وهو أستاذٌ في علم الإنسان من استراليا، يعد تقريراً مفصلاً ينتقد فيه عملها الميداني الأول في ساموا. أزعجها هذا كثيراً لأن السبب الأعظم في شهرتها هو دقة وتوسع عملها الميداني هذا. ورغبة منها ربما بالدفاع عن نفسها مقدماً، فقد تكلمت وكتبت كثيراً في أواخر سنوات حياتها حول الصعوبات الكبيرة المنطوية على القيام بأي عمل ميداني. فكأنها أرادت أن يتذكر الناس أنها كانت شابة صغيرة تفتقد إلى الخبرة عندما ذهبت إلى ساموا، وكتبت الكتاب الذي خلق شهرتها. فقد كان عليها أن تستنتج لنفسها طريقة العمل الذي أرسلت للقيام به، ولربما وقعت في خطأ أو خطأين صغيرين، ولكنها في النهاية كانت تدافع عن عملها وعن النتائج التي وصلت إليها. لربما من حسن الحظ أن هذه العاصفة لم تبدأ إلا بعد وفاتها. فقد نشر ديريك فريمان انتقاداته عام 1983 في كتابه: «مارغريت ميد وساموا: الاختلاق و الدَّحض للأسطورة الأنثروبولوجية». وقد أشار فيه إلى أن ميد كانت ساذجة وسهلة الانخداع في عملها، وأنها صدقت القصص التي اخترعتها الفتيات عند الإجابة على أسئلتها. فرأى أن الفتيات في ساموا لم يكنّ مسرورين بالطريقة التي صوّرتها ميد. وأصر على أنه وجد في عمله الميداني أنه يوجد ميلٌ لدى الساموييين للتنافس

والغيرة، وكانت عندهم الكثير من حوادث الاعتداء. اتهم ميد كذلك؛ أن ملاحظتها السطحية لعدد محدود من الحالات، وبحثها عن دليل على الاستنتاجات الماضية لأستاذها فرانز بواز؛ أن الثقافة أكثر أهمية من علم الأحياء في تحديد السلوك الإنساني.

وحتى قبل نشر كتاب فريمان، طلعت صحيفة نيويورك تايمز بخبر رئيسي في الصفحة الأولى يقول: «كتاب جديد عن ساموا يتحدى استنتاجات مارغريت ميد». وكان هذا في 31 من كانون الثاني عام 1983. مرة أخرى، عادت ميد فجأة لتصبح مركز الاهتمام الشعبي، وربما أكثر حتى من فترة حياتها. أما عن موقف الأمريكيين من ذلك، فقد كانوا ساخطين من هذا فأخذوا يقولون: من هذا الأستاذ الأسترالي الذي يهاجم أشهر امرأة وعالمة إنسان في أمريكا؟ ولكن الكثيرون بدؤوا يتساءلون: ماذا لو كانت مارغريت ميد مخطئة في استنتاجاتها حول ساموا والتي شجعت من خلالها ولمدة خمسين عاماً نشر الثقافة في المجتمع الأمريكي؟ ما هو مصير أمريكا وعلم الإنسان الثقافي؟ وهل يمكن أن يكون العلم المسمى علم الإنسان ليس علماً، بل على الأغلب نوع ما من لعبة التخمين؟

أحس علماء الإنسان بالتهديد يترصد نظامهم. فتسابقوا بالدفاع عن ميد بإجماع كامل تقريباً. وحتى مارغريت ميد نفسها تنبأت من غير قصد أو دراية بما سيحدث، فكتبت

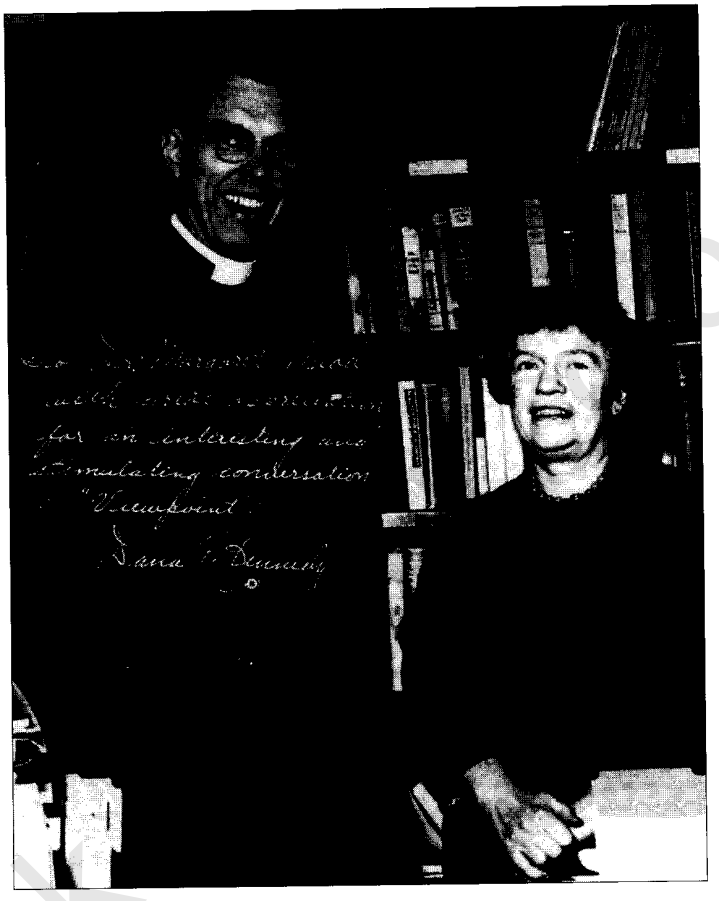

السيد دانا إف. كندي مع مارغريت ميد خلال تسجيل البرنامج التلفزيوني «وجهة نظر». بسبب آرائها القوية، كثيراً ما كان يسعى الناس وراءها للظهور في التلفاز والراديو.

ذات مرة في مقالة عن النساء العالمات في ميدان البحث: «ما يزال علماء الإنسان من جيلي ينظرون إلى كل علماء الإنسان بمن فيهم أولئك الذين لم يقابلوهم حتى يعبروا تجاههم بكل المودة التي تتولد من الروابط العائلية الوثيقة، والتي يشعر كل واحد أنه ملزم بشكل كامل بتقديم العون اللامتناهي». كتبت هذه المقالة معلقة على كثرة الصراعات الداخلية في مجتمع علم الإنسان والنقد القاسي لأعمال الآخرين وبعض الدلائل من وجود ورطة

عاطفية داخل المجتمع الصغير ولكنها عرفت أنهم سيؤيدونها كما فعلوا بشكل «لامتناهي».

ناقش علماء الإنسان قضية ميد في حلقات البحث والبرامج الإذاعية والتلفزيونية، وفي مراجعات الكتب والحوارات العامة، والرسائل التي كتبوها للمحرر من جميع أنحاء البلاد فحلت المسألة بشكل عام لصالح ميد.

لقد درس عالم الإنسان لويل د. هولمز من جامعة ويتشيتا ستيت الذي كان قد قام بعمل ميداني في جزيرة تاوني ساموا عام 1954، الجدل المثار حول ميد بشكل مطول وأيد استنتاجات ميد. ذكر أنه في عام 1925 ، كان بلوغ سن الرشد في ساموا يتم بشكل أسهل منه في نيويورك. ذلك أن الفتيات في ساموا اللواتي لم يكن سعيدات في منازلهم. كان بوسعهن الانتقال بيسر إلى بيت الزواج. كما كان بلوغ سن الرشد يتم بسهولة بسبب التواصل والتكامل بين حياة الطفل وحياة البالغ الساموين. كتب يقول: إن «المارد كان بحقٍ مارداً. وأضاف يقول اعتقد أن استنتاجاتها كانت صحيحة. فالطريقة التي اتبعتها كانت موضوعية وكذلك فإن خبراتها المهنية في الملاحظة كانت جيدة بشكل فريد بالنسبة لعمرها وخبرتها».

كان كتاب مارغريت ميد الذي اشتركت في كتابته مع الكاتب الأمريكي الإفريقي جيمس بالدوين واحداً من أقل الكتب نجاحاً. فقد نشر الكتاب «اتهام العرق» عام 1971. ولكن الكتاب قام على محادثات ميد وبالدوين التي

أجرياها وجهاً لوجه واستغرقت سبع ساعات في ثلاث جلسات، تحدثا فيها عن العرق والمجتمع. نُقح الشريط ونشر ككتاب، إلا أن المادة كانت هزيلة.

بدا على ميد في سنوات حياتها الأخيرة وكأنه سيطر دافعٌ لأن تتكلم وتنشر حتى عندما لم يكن هناك الكثير لتقوله. لم تكن تستطيع أن تتوقف لأنها أدركت أن التوقف كان يعني الاختفاء عن العين العامة. وهذا ما لم تتحمله؛ لأنها استمتعت بالشهرة واعتقدت أنها استحقتها وأرادتها أن تستمر. نشرت عام 1972 سيرتها الذاتية، «شتاء العليق: سنوات حياتي الأولى». وقد كان الكتاب عودة منعشة لميد الأولى. وقد استطاعت ككاتبة أن ترسم رؤى جميلة ومؤثرة عن تجاربها الشخصية. بعد خمس سنوات، نشرت ما جمعته من «رسائل من الميدان»، 1925 ـ 1926. فلطالما أحبت كتابة الرسائل، وبعض أفضل كتاباتها هي في رسائلها. يُعَدّ هذان الكتابان مع كتابها الأول «سن الرشد في ساموا» وصيتها المكتوبة الأكثر بقاءً.

في منتصف السبعينات، انتخبت ميد للأكاديمية الوطنية للعلوم وهي من أكبر مجموعات العلماء مكانة في الولايات المتحدة. كما انتخبت لرئاسة الجمعية الأمريكية لتطوير العلم (إي إي إي إس). كما أقيم احتفال على شرفها يوم عيد ميلادها في بوسطن في السادس عشر من ديسمبر، وكانت في الخامسة والسبعين. جاء غريغوري

بيتسن من كاليفورنيا للمشاركة في الاحتفال.

وقد سُمِعَ يقول: «أين تلك القردة الصغيرة ؟» بينما كان يدخل الممر إلى مركز انعقاد الدعوة. وخلال الجلسات، قرأ رفاقها العلماء كلمات ثناء لميد تحدثوا فيها عن كيفية العمل معها. وتحدث بيتسن عن «شغفها في الحصول على المعلومات». وتذكرت عالمة الإنسان لولا رومانوسي روس التي كانت قد ذهبت مع ميد إلى مانوس عام 1965 كيف تكدرت ميد بعد أن أخبرتها ذات صباح أن «لا شيء يحدث» في القرية، لأنه بالنسبة لميد كان دائماً ثمة شيء يحدث.

في هذا الاحتفال بعيد ميلادها، ظهرت صفحة كاملة في الإعلانات بجريدة نيويورك تايمز «عيداً سعيداً، مارغريت ميد». هذه الجريدة كانت تمول بالمشاركة من قبل كل من المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي الذي منح باسم ميد كرسي بحث، ومجلة «الكتاب الأحمر» التي نشرت عموداً لها طيلة خمسة عشر عاماً. ووليام مورو الذي كان أول من نشر لها. قالت يومها للصحيفتين «أتوقع أن أموت ولكن لا أخطط أن أتقاعد».

في السنوات الأخيرة، تدهور سمعها بشكل كبير مما حرمها من متعتها الأعظم في الحوار مع الناس، ثم وجدت نفسها مريضة جداً وشُخِّصَ مرضها أنه سرطان البنكرياس، وحاولت محاربته بشتى الوسائل التي استطاعت أن تجندها بما فيها الاستعانة بالمعالجة الروحية

oberkandl.com

وهي امراة من تشيلي كان اسمها كارمن دي بارازا.

توفيت ميد في مدينة نيويورك في الخامس عشر من نوفمبر عام 1978. وذلك في اليوم الذي تمَّ فيه اختيارها واحدة من الخمس والعشرين امرأة الأكثر تأثيراً في العالم، وذلك من قبل «التقويم العالمي». حزن عليها العالم كله. وعندما علم سكان قرية بيري في جزيرة مانوس في المحيط الهادئ أن «مارغريت ميد» قد ماتت، أغلقوا المدارس وبقوا في منازلهم أربعاً وعشرين ساعة. ثم ولخمسة أيام، أدُّوا الطقوس الخاصة برحيل زعيم عظيم. وفي الولايات المتحدة، عقدت الاجتماعات لتكريم ميد في المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي، وفي جامعة كولومبيا والكاتدرائية الوطنية في واشنطن، وفي الأمم المتحدة كذلك. وقد منحت بعد وفاتها الميدالية الرئاسية للحرية وهي أعلى وسام يمنح لمدني في أمتها.

obeikandl.com

obeikandl.com

جدول التاريخ الزمني

*** السادس عشر من ديسمبر عام 1901**

ولدت في مستشفى ويست بارك في فيلادلفيا وهي الابنة الأكبر لإدوارد شيردود ميد وإيميلى فوج ميد

*** 1920 - 1919**

طالبة في جامعة دي باو في جرين كاسيل، إنديانا.

*** 1923 - 1920**

طالبة في كلية بارنارد في مدينة نيويورك. حصلت على بكالوريوس آداب في علم النفس في عام 1923.

*** الثالث من سبتمبر عام 1923**

تزوجت من لوثر شيليغ كريسمان في لاهاسكا.

*** 1924**

حصلت على ماجستير في علم النفس من جامعة كولومبيا.

obeikandl.com

* 1925 - 1926

عمل ميداني لمدة تسعة أشهر في ساموا.

* 1926

تعينت كأمين مساعد لعلم الأعراف البشرية في المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي في مدينة نيويورك.

* 1928

نشر وليم مورو كتابها «سن الرشد في ساموا»

* الخامس عشر من تموز من عام 1928

الطلاق من لوثر كريسمان في هيرموسيللو في المكسيك.

* الثامن من تشرين الأول لعام 1928

الزواج بريو فورتيون في أوكلاند بنيوزيلندة.

* 1928 - 1929

عمل ميداني في مانوس في جزر الأميرالية في قرية بيري.

* 1929

الحصول على الدكتوراه في علم الإنسان من جامعة كولومبيا.

* صيف 1930

عمل ميداني في غينيا الجديدة مع ريو فورتيون.

* 1935

الطلاق من ريو فورتيون.

obeikandi.com

1936 *

الزواج من غريغوري بيتسن.

1939 ـ 1936 *

عمل ميداني في بالي وغينيا الجديدة مع غريغوري بيتسن.

الثامن من كانون الأول عام 1939 *

ولادة الابنة ماري كاثرين بيتسن.

1949 ـ 1939 *

العمل الحربي مجلس الأبحاث الوطني، لجنة العادات الغذائية، دراسة الثقافات عن بعد.

1950 *

الطلاق من غريغوري بيتسن.

1953 *

العودة إلى مانوس مع تيد ولينورا شوارتز.

1954 *

أصبحت أستاذاً مساعداً لعلم الإنسان في جامعة كولومبيا.

1960 *

رئيسة جمعية علم الإنسان الأمريكية.

1969 *

ولادة الحفيدة سيفان مارغريت كاسارجيان.

1972 *

نشر كتاب «شتاء العليق»: سنواتي الأولى.

obeikandl.com

*** 1975**

رئيسة الجمعية الأمريكية لتطوير العلم.
انتخبت من قبل الأكاديمية الوطنية للعلوم.

*** 15 تشرين الثاني 1978**

ماتت في مدينة نيويورك بسرطان البنكرياس في السادسة والسبعين من العمر.

obeikandl.com

كتب ومقالات لمارغريت ميد

* مارغريت ميد سن الرشد في ساموا: دراسة نفسية للشباب البدائي موجهة للحضارة الغربية. نيويورك: وليام مورو، 1928.

* مارغريت ميد. النمو في غينيا الجديدة: دراسة مقارنة للتعليم البدائي. نيويورك: وليام مورد، 1930

* مارغريت ميد. الثقافة المتغيرة لقبيلة هندية. 1932، إعادة طباعة، نيويورك: طباعة إي.إم.إس، 1969.

* مارغريت ميد. وغريغوري بيتس. الشخصية البالينية: تحليل مصور. نيويورك: أكاديمية نيويورك للعلوم، 1932.

* مارغريت ميد. الجنس والمزاجية في ثلاثة مجتمعات بدائية. نيويورك: وليام مورو، 1935.

* مارغريت ميد. احفظ البارود جافاً. نيويورك: وليام مورو، 1942.

* مارغريت ميد. الذكر والأنثى: دراسة للجنسين في عالم متغير. نيويورك: وليام مورو، 1949.

obeikandl.com

* مارغريت ميد. «ناس وأماكن». كليفلاند ونيويورك: العالم، 1959 (لسن الثانية عشرة وما فوق).

* مارغريت ميد وآخرون. عالم إنسان في العمل: كتابات رث بندكت. بوسطن. هيوتون ميفلن، 1959.

* مارغريت ميد و وَرث إل. بنزيل. العصر الذهبي لعالم الإنسان الأمريكي. نيويورك: جورج برازيلير، 1960.

* مارغريت ميد. علماء الإنسان وما يفعلون. نيويورك. فرانكلين واتس، 1965. (لعمر 12 وما فوق).

* مارغريت ميد مع جيمس بالدوين. «اتهام العرق». فيلادلفيا. ليبنكوت، 1971.

* مارغريت ميد. «طريقة الرؤيا» (مبني على أعمدة من مجلة الكتاب الأحمر) نيويورك. مككول، 1970 (إعادة الطباعة: وليام مورد، 1974)

* مارغريت ميد. «العمل الميداني في جزر الهادئ 1925-1967.» بيغي غولد وآخرون «نساء في الميدان: خبرات أنثروبولوجية» شيكاغو، الدين، 1970.

* مارغريت ميد. شتاء العليق: سنواتي الأولى. نيويورك: وليام مورو، 1972.

* مارغريت ميد. رسائل من الميدان، 1925- 1965. نيويورك: هاربر ورو، 1977.

* مارغريت ميد. «إسهامات علم ـ إنسانية في السياسات الوطنية خلال وعقب الحرب العالمية الثانية». والتر غولدشميدت وآخرون. استخدامات علم الإنسان. واشنطن دي.سي. نشر خاص لجمعية علم الإنسان الأمريكية. رقم 11، 1979.

* مارغريت ميد. «صفات الحاضر» (مبني على أعمدة من مجلة الكتاب الأحمر). نيويورك: وليام مورو.

obeikandl.com